أدبية التوكيد في القرآن الكريم

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة، وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه، فهو يؤكد في موطن ما مراعيًا موطنًا آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به لانعدام موجبه، وترى أنه هنا أكد بمؤكدين، وأكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدات، فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلًا، وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا بإنَّ المشددة، وفي موطن آخر بإنْ المخففة، ويستبدل حرفًا بحرف، كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كأنه لوحة فنية واحدة، فيها من عجائب الفن ـ وليس فيها إلا العجيب ـ ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهورًا دهشًا مقرًّا بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبه فضلًا عن الإتيان بمثله.

نأخذ شاهد على حرف اللام الذي يفيد التوكيد

لام التوكيد حرفٌ يُقوّي مضمون الكلام ويُثبّت الحكم في نفس المخاطَب.
ودراستها تجمع بين سؤالين :أين تقع اللام، وما حكمها النحوي؟ ولماذا اختارها المتكلِّم في هذا المقام، وما أثرها البلاغي؟ وما وظيفتها في النص؟ وما أثرذلك في المتلقي ؟

أولًا: مفهوم لام التوكيد وحكمها النحوي

يُستعمل تعبير لام التوكيد غالبًا للدلالة على لام الابتداء، ومنها اللام التي تُسمَّى المزحلقة عند وقوعها بعد إنَّ.

ولام الابتداء حرفٌ مبنيٌّ على الفتح، لا محل له من الإعراب، ولا يعمل رفعًا أو نصبًا أو جرًّا؛ وإنما يؤكِّد مضمون الجملة.

ففي قولك :لَزيدٌ قائمٌ:

- اللام: لام الابتداء والتوكيد، حرفٌ مبنيٌّ على الفتح لا محل له من الإعراب.
- زيدٌ: مبتدأ مرفوع.
- قائمٌ: خبر مرفوع.

لاحظ أن الاسم بعد اللام بقي مرفوعًا؛ لأن هذه اللام ليست لام الجر.

وتدخل على المبتدأ لتوكيد الحكم، كقوله تعالى:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر :١٣.]

فاللام في لَأَنْتُمْ لام ابتداء، وأنتم ضميرٌ منفصلٌ في محل رفع مبتدأ.

ومن أمثلتها:

﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة :٢٢١.]

فاللام تؤكِّد الحكم بأفضلية العبد المؤمن على المشرك في السياق الذي وردت فيه الآية.

ثانيا: أثر لام التوكيد في المعنى البلاغي

1) .تثبيت الحكم ودفع التردُّد

إذا قلت :إنَّ هذا الرأيَ لَصحيحٌ، فأنت تُقرِّر صحة الرأي تقريرًا أقوى من الجملة المجرَّدة: هذا الرأي صحيح.

لكن لا يلزم أن يكون كل كلامٍ مؤكَّد جوابًا عن إنكارٍ صريح؛ فقد يكون التوكيد للعناية بالخبر، أو التحذير، أو التطمين، أو تعظيم شأن الحكم.

2) .تقوية الوعد والتطمين

قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد :٦.]

اجتماع إنَّ واللام يُقرِّر وصف المغفرة ويُثبِّته في مقام الحديث عن معاملة الله لعباده.

واللام في لَذُو للتوكيد، أما اللام في لِلنَّاسِ فللجر؛ فاجتماعهما في آيةٍ واحدة يوضِّح أهمية التمييز بين وظائف الحرف.

3) .تقوية الوعيد والتحذير

قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين :١٥.]

دخلت اللام على خبر إنَّ، وهو محجوبون، فأكَّدت ثبوت الحجاب. ويزداد أثرها في سياق الآيات التي تصف حال المكذِّبين وجزاءهم.

وانتبه :التوكيد هنا يثبِّت النتيجة المخيفة، لكنه لا ينشئ معنى الوعيد منفردًا؛ فالوعيد مستفادٌ من مضمون الخبر وسياقه.

4) .إبراز خطورة الخبر

قال تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور :٧.]

في الآية الثانية تؤكِّد اللام وقوع العذاب. ولا ينبغي أن نستنتج أن كل جملةٍ اشتملت على اللام أعظم شأنًا من كل جملةٍ خلت منها؛ فلكل تركيبٍ مقامه، والتوكيد يُدرس ضمن السياق الكامل.

5) صلتها بأحوال المخاطَب

يُقرِّب البلاغيون مراتب التوكيد بأمثلةٍ تعليمية:

الصياغة المناسبة في الأصل حال المخاطَب

الطالبُ ناجحٌ خالي الذهن من الحكم

الصياغة المناسبة في الأصل حال المخاطَب

إنَّ الطالبَ ناجحٌ متردِّد في الحكم

إنَّ الطالبَ لَناجحٌ منكر للحكم

وهذا ترتيبٌ تعليميٌّ يبيّن مناسبة التوكيد لحاجة المخاطَب، وليس قاعدةً آليةً تفرض عددًا ثابتًا من المؤكِّدات. فقد يُنزَّل غير المنكر منزلة المنكر إذا كان سلوكه يدل على عدم الاعتداد بالحقيقة.

فمَن يعلم ضرر التدخين ويستمر فيه قد يُخاطَب بقولك :إنَّ التدخينَ لَضارٌّ؛ لأنك تريد أن تنقل علمه من مجرَّد المعرفة إلى الاعتبار والعمل.

ثالثا: الدراسة الأدبية

وعند دراسة أي لام، اسأل نفسك :ما نوعها؟ وعلى أي عنصرٍ دخلت؟ وما الحكم الذي أكَّدته؟ ولماذا احتاج المقام إلى هذا التوكيد؟ بهذه الأسئلة تربط الإعراب بالدلالة، وتنتقل من تسمية الأداة إلى فهم وظيفتها في النص.

فنأخذ مثالا على ذلك آيتين متشابهتين واحدة فيها لام التوكيد والثانية تخلو من لام التوكيد ونبين سبب ورودها في النص وعلاقة ذلك بالسياق القرآني :

أ- فمن ذلك مثلًا الإتيان بلام التي تفيد التوكيد في سورة النحل ، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

وقوله في آية أخرى تخلو من اللام :

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [غافر ـ المؤمن: ٧٦].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فلبئس مثوى المتكبرين) دون الآية في سورة غافر إذ قال فيهما: (فبئس مثوى المتكبرين)

وذلك لأنه في سورة النحل وصف قومًا أشد كفرًا وأكبر جرمًا من المذكورين في آيتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، فنرجع الى سياق الآية

قال تعالى في سورة النحل يصف عقاب المتكبرين من الكافرين :

((لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30))

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الأخريين، فناسب ذلك أيضًا ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة.
جاء في (درة التنزيل): "للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خُصَّت وحدها بدخول اللام على قوله: (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إن الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) [النحل: ٢٤–٢٥].

وهؤلاء أكثر الناس آثامًا وأشدهم عقابًا، ومن هذه صفته اختير عند تغليظ العقاب له إلى جمع اللغة في تأكيد لفظه فاختصت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) [النحل: ٣٠]، في مقابل ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(29))

أما سياق الآية في سورة غافر

((ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76))

فهم يحملون أوزارهم فقط ولم يضلوا غيرهم فجاء الفعل (بئس) من غير توكيد

وفيما يأتي قراءة أدبية للعبارة المشتركة، ثم بيان أثر السياق في كل موضع:

1) **الفكرة والعاطفة**

تشترك الآيتان في تصوير مصير المتكبرين تصويرًا يجمع بين رهبة المشهد، وقوة الأمر، ودوام العذاب، والتوبيخ. والفكرة الأساسية هي بيان عاقبة التكبر عن

قبول الحق. والعاطفة التي يثيرها النص هي الخوف والرهبة؛ فالمتلقي يواجه أمرًا بالدخول إلى جهنم، يعقبه إعلان الخلود فيها، ثم ذمّ هذا المصير.

تأملي ترتيب المعاني: دخول، ثم خلود، ثم ذمّ. كل مرحلة تزيد المشهد شدة؛ فليست العقوبة دخول النار فحسب، بل البقاء فيها، مع الإهانة والتوبيخ.

2) الأسلوب الإنشائي في "ادْخُلُوا"

"ادخلوا" فعل أمر، وتؤدي صيغته هنا معنى الإلزام المصحوب بالإهانة والزجر؛ فالمخاطَبون لا يملكون اختيار المصير أو دفعه.

3). التصوير الحسي في "أَبْوَابَ جَهَنَّمَ"

يقدّم التعبير مشهدًا محسوسًا: أبوابًا يعبر منها المعذَّبون إلى النار. وبهذا يتحول الحديث عن الجزاء إلى صورة يمكن استحضارها: مكان، وأبواب، وجماعات تدخل. وهذا تصوير حسي لمشهد أخروي، ولا يلزم أن نعدّه استعارة؛ فالأثر الأدبي قد يتحقق بالتعبير الحقيقي حين يُعرض عرضًا مؤثرًا.

4). البعد الزمني في "خَالِدِينَ فِيهَا" وأثره النفسي

تضيف هذه العبارة إلى الصورة المكانية بُعدًا زمنيًا؛ فبعد تحديد المكان يأتي بيان دوام الإقامة فيه.

. و"خالدين" حال من واو الجماعة في "ادخلوا"، وهي تصف دخولهم بأنه دخول يعقبه الخلود. وهنا يتعمق الأثر النفسي: فالألم يشتد حين ينقطع رجاء انتهائه.

5. معنى بئس وخصائصه

- من جهة الزمن والصيغة: هو فعل ماضٍ جامد لإنشاء الذمّ، مبني على الفتح. وجموده يعني أنه لا يتصرّف في هذا الاستعمال إلى مضارع أو أمر.

- من جهة الدلالة: مع أن صيغته صيغة الماضي، فإن المقصود به إنشاء الذمّ عند الكلام، وليس الإخبار عن حدث وقع في الماضي.

6 . أسلوب الذم في "فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ"

"بئس" فعل يفيد الذم، و"المثوى" مكان الإقامة. فالتعبير يذمّ مقرهم الذي صاروا إليه، ويختم المشهد بحكم قاطع على سوء المصير.

7. دلالة اختيار "الْمُتَكَبِّرِينَ"

لم تُختَم الآية بضمير مثل "فبئس مثواهم"، بل ذُكرت صفتهم: "المتكبرين". وهذا يلفت النظر إلى الصفة المذمومة التي يتصل بها هذا المصير.

ويمكن أن نلحظ مفارقة معنوية بين تعاليهم في الحياة الدنيا وذلّهم في الحياة الآخرة : فمن استعلى عن قبول الحق ومخالفته في الدنيا ينتهي إلى موقف يسمع فيه أمرًا لا يستطيع مخالفته في الآخرة . وهذه مفارقة في المعنى، وليست طباقًا لفظيًا صريحًا.

8) الفاصلة القرآنية

. وتأتي كلمة "المتكبرين" في الفاصلة لتترك الصفة المذمومة آخر ما يستقر في السمع.

المصدر

التعبير القرآني فاضل السامرائي